من رحلة الشتاء

في مضارب شمر

البادية

للآنسة زينب الحكيم

إن للبادية طابعاً خاصاً ، فهي في النهار غيرها في الليل ، وهي في شقشقة الفجر غيرها في غلس المساء . في الصباح الباكر تبدو الطبيعة هواؤها وماؤها ، نباتها وطيورها ، حيوانها وإنسانها متمالكاً قواه ، على أتم استعداد للنشاط والانتاج ، يبدو الزهد على كل شيء والتضحية بكل شيء ، ويظهر محيط موحد يضم هذه العناصر جميعها .

يبقى هذا المنظر لحظات سريعة المرور خطيرة الأثر . وتبكر الشمس فتمتد خيوطها الجميلة فتحيي الزهر ، وتنعش العشب ، وتنشط الهواء ، وتداعب الندى .

وتسرع القطعان ورعاتها للسعي والتنقيب ، فينكسر سكون الصباح ، وتسمع هنا مواء ، وهنا نباحاً ، وهناك صياحاً وغناء .

ويدور الأحياء دورتهم ، في شؤون الحياة العملية الصرفة ، صابرين على هجير البادية وقارس بردها ، وعلى جدبها وخصبها ، راضين بسكونها وثورتها .

ها هو ذا الماء يتقاطر ، وذكاء على وشك الغروب وراء الأفق ، وكذلك تسرع القطعان ورعاتها إلى حظائرها ، ويدور الفلك دورته العكسية الأبدية . يالله من أضداد الطبيعة ، وهي هي بعناصرها ومحتوياتها ، سكون شامل رهيب ، يتلاشى فيه ثغاء الأغنام وهدير الابل ، ويرتفع فيه نباح الكلاب — ترهف فيه الأسماع وكل الحواس . قبة زرقاء صافية في الصباح الباكر ، يزينها الضوء الهادئ البديع ، والضباب الخفيف والنسيم العليل ؛ وقبة زرقاء قاتمة في المساء ، تتلألأ فيها نجوم زاهرة ، وتتماوج نسائم بليلة حائرة ، وتشمل الكون بمن فيه رهبة قاهرة .

ليلة ؟؟

أذهب مسرعة إلى الخيمة التي أعدت لنوى وسط هذه الطبيعة الغريبة ، والبادية البعيدة ، فيدخل معي الشيخ ليدلني على نظامهم ، ومعه خادمان ، يحمل أحدهما مصباحاً ، والثاني طستاً وإبريقاً به ماء دافئ ؛ وأشكر الشيخ على شدة عنايته باستكمال وسائل راحتي ، فيقول : عمي مساء ، وينصرف في رداء العربي الشريف ، ونظرة البدوي الشجاع .

ويحملق العبد في وجهي بـ ألين إذا كنت أريد شيئاً قبل أن ينصرف فأشكره وآمره أن يترك المصباح عندي على المنضدة . وسألته إذا كان لديه شمعة وعلبة ثقاب . فناولني علبة الثقاب أما الشمعة فلا توجد . وضعت الكبريت على الكرسي القريب من السرير ؛ وقلت للعبد : من فضلك اخرج وأقفل باب الخيمة . فبدأ يضع الحبل في الثقوب المعدة لذلك بشكل فني ، وكنت واقفة أرقب ما يعمل (وهنا تذكرت خيام الكشافة ، وكل ما تعلمته من حركاتها النافعة ، وأوصى كل فتاة وكل فتى أن يندمج في سلكها رسمياً ، لأنها للحياة العملية وحياة البادية والمخاطرات من الدرجة الأولى في الأهمية) .

مجلس العرب البدو في الجزيرة — (قبائل شمر) وبينهم بعض الزوار

أوشك العبد أن يتم عمله ، ولم يبق إلا ثقبان بدون توثيق ، فنظر إليّ من بين طرفي الباب والخيمة ، بحيث لم يظهر منه إلا وجهه الأسود ، بأنفه الكبير المفرطح ، وعينيه اللامعتين الخبيثتين ، وشاربه الطويل الغزير ، وظهرت أسنانه الكبيرة البيضاء ولسانه الأحمر العريض عند ما قال : عمي مساء سيدتي . قلت : عم مساء وأشكرك . وفي سري قلت : (أبغض منظرك المخيف الهائل في هذه الظلمة الحالكة ، والسكون الرهيب)

وأردت أن أستوثق من أن جوانب الخيمة محبوكة ، فأطمئن إلى أن كائنا ما لا يمكنه دخولها ، فجلست القرفصاء أختبر ذلك . وما كان أشد جزعي ، وأبعد تخيلي عما توهمت ! لقد وجدت طرف الخيمة يصل إلى حافة السجاد المغطى أرض الخيمة فحسب ، والهواء البارد يمر من جميع نواحيها ، ويستطيع

أى حيوان أليف أومتوحش ، اندخول بلا أدنى عائق . فاستولى على جزع لم أعهده فى حياتى ، وعبثا أحاول إقناع نفسى بالتذرع بالشجاعة ، أوباستعادة الماضى . فكم من ليال نمتها فى أشباه هذه الخيمة فى انجلترا ، فى أجواء أبرد وأشد صقيعاً ومطرا بل وثلجا .

وإن تمح من ذاكرتى أهم الحوادث الغريبة ، التى حدثت لى فى بعض هذه المخاطرات ، فلن تمحى الحادثة الآتية التى حدثت لى مرة ونحن نخيم فى البرية فى جهة من جهات انجلترا :

اتخذنا مخيمنا وسط أرض جيدة ، توسمنا أنها خير ما ظهر لناظرنا صالحا لهذا الغرض . وكنا بعيدين جداً عن السكان ، وكنا كلنا طالبات فتيات ، متخذات من شبابنا قوة على أعمال الكشف والتقشف . وبعد جهاد يوم شاق من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر ، أخذنا عدتنا للنوم ، فدخلت كل منا فى كيس نومها الذى يغطي جميع أجزاء جسمها ، وتربط طرفه الأعلى حول عنقها ، فلا يكون غير الوجه ظاهرا ، ويغطى بغطاء خفيف يمنع الحشرات ويسمح للتنفس .

على بركة الله افترشنا الأرض والتحفنا الخيمة ؛ وما كدت أسلم جفنى للكرى حتى شعرت بحركة غريبة تحت جنبى ، فقلت لعلى أنام على جنبى الأيسر ، مما سبب للقلب قلقا ، فانقلبت على الجانب الأيمن ، ولكن الحركة استمرت ، بل زادت شدة ، فجمد الدم فى عروقى ، وهدأت حركتى قسرا ، إذ تصورت أن عفريتا تحت الأرض ، كما تعتقد أن يشق بطن الأرض فيخرج منها ، ويتخذ جسمى بديلا . وخطرت ببالى جميع خرافات الجن والشياطين والأرواح ، وعقد الخوف لسانى ، فلم أستطع الاستغاثة بصديقاتى ، ولا أملك تحريك أطرافى فأدفع عن نفسى ذلك العفريت الأرضى .

ولما اشتدت حركات العفريت وعنفت صرخت مستغيثة كمن أصابه مس مؤكد . فهرعت إلىّ الطالبات ، يستفسرن الخبر فأخبرتهن ، فقالت واحدة : أسرعى «درثى» أحضرى الكيس ، وصاحت أخرى : «نللى» أحضري حبلا ، وأسرعت ثالثة ورابعة بأيديهما سكين ومسدس ، وتصورت أن الجنى قد أتت ساعته ، وحان حينه ، وأنى كنت على حق فيما أحسست ، وحمدت الله على أنى لم أكن مدعية ، وبدأت أنشط مع الجماعة لأنتقم لنفسى من ذلك الشرير الذى طالما اختفى ، وها قد حان الوقت لرؤيته وكشف سر العفاريت كلها بعد كشف ذلك .

وضعت الفتيات الكيس مقلوبا على المكان الذى تصورنا أن العفريت سيخرج منه ، بحيث انسجمت فتحة الكيس على الوضع تماما ، واجتمعت الأيدى على تثبيتها بحيث لا يستطيع فكاكا .

وتوجهت همة الفتيات كلها إلى القبض عليه فى الكيس حتما .

وأخيرا وبعد جهد شاق ، قفزت عفاريت ثلاثة من باطن الأرض إلى داخل الكيس المتين ، ثم انتهت الحركة فى باطن الأرض ، فقبضت الطالبات على فتحته ، وبدأن يذبحن الشياطين الكفرة ، قاتل الله الأرانب البرية ! لقد كان شكلها جميلا وطعمها لذيذا ، ولكن فعلتها كانت شنيعة بالنسبة لى وحدي ، لأنه لم تكن لى هذه التجربة من قبل ، مثل باقى زميلاتى ، اللاتى اعتبرن حدوثها لى حسن حظ وتوفيق أتى للجماعة الكشفية ، عن طريق الساحرة المصرية ، التى تعرف سر الكشف عن الكنوز فى زعمهن .

هذه هى قصة الحادثة الغريبة التى سبق أن حدثت لى ، وكان يجب أن أكون أكثر شجاعة مما كنت تلك الليلة فى مضارب شر . ولكن ليذكر القارىء أن شعور الأمان والنظام الذى يحسه الانسان فى بلاد الانجليز ، غير الشعور الذى يحسه فى أى بلد آخر . فما بالنا بما يشعر الانسان به بين أشد القبائل البدوية مراسا وقوة ! إن تلك الحادثة على فظاعتها وما سببته لى من رعب لم تكن أشد تأثيرا فى نفسى من تلك الليلة فى خيمة البادية .

لم أذق للنوم طعما طول تلك الليلة ، لا خوفا من البدو والعرب أنفسهم ، ولا من عبيد الشيخ كما توهمت ، بل بالتحليل النفسى الذى شغلت نفسى به ، توصلت إلى التعليل الآتى ، وأظنه معقولا تماما :

١ — كان الطريق وعرا جدا وطويلا متعبا إلى أقصى حد احتملته ، فضعفت عندى قوة المقاومة والتعليل الوقتى المتزن .

٢ — هذا بالاضافة إلى حياة مباينة كل التباين لما سبق أن اعتدته زمنا طويلا من النوم داخل سيارة ، مما جعلنى أشعر أنى أنام فى العراء ، وسبب هذا لى وحشة شديدة لم تتحملها أعصابى وجسمى المتعبان ، فحدث لى الأرق والرعب .

ومع كل هذا أشهد أنى قمت فى الصباح ، تاركة فراشى على أحسن ما يمكن من الصحة والنشاط ، كما لو كنت نمت الليل كله ملء جفنى ، فان الهواء هناك صحى مطهر ، وبذلك قد عوضنى بدل

النوم ، ولعل هـذا سبب ثالث لعدم نومى ، ولعله من الأسباب المهمة أيضا فى قوة بنية البدو أنفسهم .

الحياة الاجتماعية عند البدو « قبائل شمر »

لهم مجالس محادثات فى الأمور المعاشية ، ثم لهم مجالس الشعر والرواية . وتستعمل الربابة قليلا ، والموسيقى كانت من أهم الأشياء التى انتقدتها فى العراق وكردستان ، وفى الجزيرة .

أما الراديو ، فيعوض الآن جانبا كبيرا من هـذا النقص ، و(يتونس) به البدو، على حد تعبيرهم بدرجة محسة كلما أداره الشيخ

وألعابهم كثيرة منها نوع يشبه الهوكى ، ومطاردات الخيل (الفروسية) أما المبارزة فانقرضت الآن .

يلعبون ألعاب الورق (الكوتشينة) قليلا للتسلية فقط .

أما فى أيام رمضان فيلعبون (الورسان) Warsan وهو نوع من أزلام الميسر ؛ ويلعبون الضامة .

شخصية الشيخ عجيل الباور

لا يمكن وصفها أو تصويرها تماما لعظمتها ، ويكفى أن يقـال فيه : إنه خبير وداهية البادية ، ولو أنه أمى ، إلا أنه يزن كثيرين جدا من المتعلمين .

ابنه الشيخ صـفوك الباور :

ثقافته حديثة ، فقد درس فى الكلية الأمريكية ببيروت ، ثم عاد إلى البادية لمساعدة والده فى سياسة العشائر .

وسياسة رؤساء العشائر عربية كانت أو كردية ، فى تربية أبنائهم ، هي أن يعلموهم الآن فى المعاهد الحديثة ليتنوروهم ، ويقووا عقلياتهم ، لا على أن يهجروا البادية ، بل ليزدادوا حبًّا لها ، وعناية بمصالح البدو . وهم لذلك يحرصون الحرص كله على إبعاد كل فكرة من شأنها إفساد أبنائهم عليهم أو تنفيرهم من الحياة التى شب آباؤهم وأجدادهم عليها .

وأهم الصعوبات فى سياسة العشائر هى المخاصمات بينهم ، ثم الذود عن مصالحهم عند الحكومة ، لأنهم جهلة ، لا يستطيعون قضاء مصالحهم ، أو حل مشكلاتهم بأنفسهم لقلة خبرتهم . والذى يقوم بأداء هذا كله الشيخ وابنه .

معلومات عن قبائل شمر وعددها

وهى مستقاة من ابن شيخ المشايخ :

قبائل شمر مكونة من مجموع قبائل : (١) زوبع (٢) السناعيس (٣) أهل الحية (٤) أولاد على .

وكل ما يعلم عن قبائل شمر أنهـا متنوعة ومتفرقة جداً ، ولا يكاد المرء يحيط بها لكثرتها . والقبائل المذكورة اختلطت فروعها بعضها ببعض .

نبذة عن قبائل شمر من الطراز الخاص

تنقسم قبائل شمر إلى قسمين ، قسم منها يقطن جنوبى العراق ويسمى « شمر الطوقة » وقد صاروا من القبائل المتحضرة .

ويسمى القسم الآخر « شمر الجربة » وهو يتألف من القبائل الساكنة فى شمالى العراق فى الجزيرة بين دجلة والفرات . وقد هاجرت هذه القبائل من جبل حائل فى منتصف القرن السابع عشر .

أما الأرض التى تقطنها شمر الجربة فى الجزيرة ، فتمتد من شرقى دير الزور شمالاً إلى هور «عقرقوف» جنوباً ، ومن الفرات غرباً إلى الموصل شرقاً ، وتراها قد احتفظت بالبقعة الخصبة الواقعة فى شمال شرقى الخابور ، ولا سيما حوض وادى جنجغ الفياض .

وتعيش شمر على حالة البداوة ، وتسكن بيوت الشعر ، وتنزل أحياناً ، بين شهرى أبريل ومايو فى شمال جبل سنجار ، وتنتشر إلى جوار نصيبين ووادى السوبدية .

أما فى الأشهر الأخرى فتنزح إلى الجنوب ، وتتحول فى المنطقة الواقعة فى جنوبى جبل سنجار .

وهى من أقوى العشائر مشاجرة ، ولا تزال فى خصام مستمر مع قبائل دليم وبقارة ، وعشائر على الكردية .

والعداء القديم متمكن بينها وبين قبائل عنزة ، وهذه تملك أحسن الجياد وأكثر الجمال . ويبلغ عدد نفوس قبائل شمر من ٥٠ إلى ٦٠ ألف نفس .

نجيب الحكيم

المدرسة العصرية

لتدريس اللغات الفرنسية والانجليزية والرسم بالمراسلات وبالمدرسة

الشروط ترسل مجاناً وقت الطلب

١٢٦ شارع عماد الدين — القاهرة